المدارس بالمدينة المنورة

كتبه بالأردية: المؤرخ الإسلامي الشهير فضيلة الشيخ القاضي أطهر المباركفوري/ رحمه الله

نقله إلى العربية: عبدالرشيد البستوي*

ومن المعلوم أنه لم يؤمن بمكة في بداية الأمر إلا القليل من ضعفاء الناس، وأنهم تعرضوا لاعتداءات ومظالم عنيفة من قبل رؤساء قريش ووجوههم، غير أن الأمر بالمدينة المنورة كان منقلبًا رأسًا على عقب، فإن أعيانها ورؤساء قبائلها بدروا إلى الإسلام عن طواعية، وقاموا بنصره بكل ما يمكنهم ويحتاج إليه الظرف. وأخص بالذكر أنهم أقاموا حلقات ومدارس لأخذ القرآن الكريم. وقد قال النبي ﷺ: «ما يُفتح من مصر أو مدينة عنوةً، فإن المدينة فُتِحَت بالقرآن».

ومما لا يخفى على أحد أن تعليم مبادئ الدين والقرآن الكريم كان قد ذاع صيته في المدينة المنورة منذ ما بايع رجالٌ من الأنصار النبيَّ ﷺ في العقبة الأولى، وبدأ رؤوساء ووجهاء القبيلتين منهم: «الأوس» و«الخزرج» يدخلون في دين الله أفواجًا، وأنه قد بُدئ تعليم القرآن الكريم وبناء المساجد بها قبل الهجرة العامة بعامين. فيقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «لقد لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله ﷺ سنتين نعمر المساجد ونقيم الصلاة»، وكان الذين يصلون بالناس يقومون بواجب تعليم القرآن الكريم في مساجدهم أيضًا. وبما أنه لم يكتب آنذاك إلا الصلوات الخمس، فكان التعليم يقتصر على أحكام الصلاة ومسائلها ومكارم الأخلاق بالإضافة إلى تعليم القرآن الكريم، وكانت بالمدينة يومئذ ثلاث مدراس تنقطع إلى التعليم والإفادة، وكانت تقع بأمكنة يسهل على سكان المدينة وحواليها وجوانبها الاختلاف إليها والتعلم فيها، منها مدرسة بمسجد «بني زريق» في وسط المدينة المنورة يعلّم بها رافع بن مالك الزرقي رضي الله عنه، ومنها مدرسة في جنوبها على مسافة قليلة منها بمسجد «قباء» حيث كان سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما يقوم بالإمامة والتعليم. كما كانت مدرسة بمنزل سعد بن خيثمة رضي الله عنه المجاور لمسجد «قباء»، وكان معروفًا بـ«بيت العزاب» الذي يقيم فيه المهاجرون، على حين كانت المدرسة

* أستاذ الحديث الشريف بجامعة الإمام أنور ديوبند والأمين العام لمنظمة علماء الهند.

الثالثة بنقيع الخضمّات على بعد من المدينة في شمالها، وكان يعلّم بها مصعب بن عمير ﷺ. هذا وكانت دار أسعد بن زرارة ﷺ هي الأخرى بمثابة مدرسة. والجدير بالذكر أن تعليم القرآن الكريم كان مستمرًا في شتى قبائل الأنصار وأحيائهم بجانب هذه المدارس الثلاث.

مدرسة مسجد «بني زريق»:

وقد أجمع العلماء على أن مسجد «بني زريق» أولى مدرسة سعد بتعليم القرآن الكريم، وإن أول مسجد قرئ فيه القرآن بالمدينة مسجد «بني زريق»، وكان يقوم بواجب التعليم فيه رافع بن مالك الزرقي ﷺ من أبناء «بني زريق» فرع الخزرج، وكان قد أسلم في العقبة الأولى، وقد أعطاه النبي ﷺ كل ما كان قد أنزل من القرآن في غضون الأعوام العشرة لحد الساعة بما فيه سورة يوسف، وكان رافع أحد نقباء المدينة ورئيسًا لقبيلته، وكان يعد في عداد الكاملين، والكامل يطلق آنذاك على من كان بارعًا في القراءة والكتابة والرمي والسباحة، وكان إثر رجوعه إلى المدينة المنورة رغّب كلَّ من كان قد أسلم من قبيلته إلى أخذ القرآن الكريم وحثّهم على ذلك، وبدأ يعلّمهم مبادئ الدين وتعاليمه في «صُفّة»، وهو أول من علّم الناس سورة يوسف بالمدينة المنورة، ثم بُني مسجد «بني زريق» في هذه الصفة، وكان المسجد في وسط المدينة بالقرب من المصلى «مسجد الغمامة» في جنوبه. وكان قد سُرّ النبي ﷺ بعد أن قدم إلى المدينة لما رأى من خدماته الدينية والتعليمية واستقامة قريحته.

وكان المعلّم بالمسجد وجلّ من تعلم فيه من أبناء «بني زريق» من فروع الخزرج[1].

مدرسة مسجد «قباء»:

المدرسة الثانية كانت بمقربة من «قباء» على مسافة قليلة من المدينة المنورة في جنوبها حيث بني المسجد. والجدير بالذكر أن كثيرًا ممن أسلم بمكة ولا سيما الضعفاء منهم أخذوا يغادون مكة إلى «قباء» حتى بلغ في مدة قليلة عدد لا يستهان به. وكان من بينهم سالم مولى أبي حذيفة أقرأهم لكتاب الله وأعلمهم به، وهو الذي كان يؤم بهم في الصلاة ويعلمهم، وبقي على ذلك إلى أن قدم عليهم رسول الله ﷺ، فيقول عبد الرحمن بن غنم ﷺ: حدثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: كنا نتدارس العلم في مسجد «قباء» إذ خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: «تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعلموا»[2]. فدلت الرواية على أن رجالا من المهاجرين المقيمن بـ

---

(1) طبقات ابن سعد: ١، الإصابة: ٢/ ١٩٠، وفاء الوفاء: ٢/ ٨٥، فتوح البلدان: ص: ٤٥٩.
(2) جامع بيان العلم: ٢/ ٦.

«قباء» كانوا يتعلمون القرآن الكريم ويعلمونه، ومن أبرزهم في ذلك سالم رضي الله عنه المديني كان يصلي بالناس ويقوم بخدمة التعليم أيضًا. يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنه: لما قدم المهاجرون الأولون العصبة موضع بقباء قبل مقدم رسول الله ﷺ كان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة وكان أكثرهم قرآنًا([1]).

وكان سالم رضي الله عنه من حملة القرآن الكريم المعروفين، وذات يوم سمعه النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن فأُعجب بالقرآن وقال: «الحمد لله الذي خلق في أمتي قارئًا للقرآن وعالمًا به مثل سالم»، وقال لأصحابه أن يأخذوا القرآن عن قرائه وعلمائه الأربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل (رضي الله عنهم). وكان سالم رضي الله عنه أميرًا على المهاجرين في غزوة فوجد بعض منهم في أنفسهم شيئًا، وطعنوا في إمارته فقال: «بئس حامل القرآن أنا إن فررت»، وخاض في المعركة يجاهد في سبيل الله حتى قطعت يده اليمنى، فأخذ العلم بيده اليسرى، ولما جرحت هذه اليد أيضًا تأبط العلَم. ولما سقط جريحًا سأل عما لقيه مولاه أبو حذيفة رضي الله عنه. ولما أخبره الناس بأن أبا حذيفة رضي الله عنه قد اُستشهد في المعركة أوصاهم بأن يدفنوه بجنبه. ومن المعلوم أن أبا حذيفة رضي الله عنه كان يتبنى سالمًا رضي الله عنه ([2]).

ويدل ما أسلفت آنفًا على ما يتحلى به سالم رضي الله عنه من علم ومعرفة وميزة في القرآن الكريم، وأنه هو الذي كان يقوم بخدمة التدريس في مدرسة مسجد «قباء». وكانت دار أسعد بن خيثمة الأوسي رضي الله عنه بمثابة رواق طلابي يقيم بها من كان يتعلم في مدرسة «قباء». وكان سعد رضي الله عنه رئيسًا ونقيبًا لقبيلة بني عمرو بن عوف. أسلم مع رجال آخرين من الأنصار في العقبة. كان آنذاك عزبًا فكانت داره لا يسكنه أحد فاتخذه رجال من المهاجرين سكنًا لهم كانوا قد تركوا أهليهم وأسرهم بمكة، ومن كانوا لم يرزقوا ولدًا، ولأجل ذلك سميت ببيت العزاب وبيت الأعزاب، ولما قدم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى «قباء» نزل في دار كلثوم بن هدم رضي الله عنه، وكانت دار أسعد بن خيثمة رضي الله عنه - بيت العزاب - هذه بمقربة منها، فكان يذهب إلى البيت حينًا لآخر يجلس مع المهاجرين يقوم بتسليتهم وتشجيعهم([3]). وكان المعلم بمدرسة مسجد «قباء» وجُلُّ من يأخذ عنه العلم من المهاجرين بجانب رجال من أبنائها أيضًا. (يتبع)

([1]) صحيح البخاري، باب إمامة العبد والمولى.

([2]) الإصابة: ٣/ ٥٧.

([3]) سيرة ابن هشام: ١/ ٤٩٣.

المدارس بالمدينة المنورة

كتبه بالأردية: المؤرخ الإسلامي الشهير فضيلة الشيخ القاضي أطهر المباركفوري/ رحمه الله

نقله إلى العربية: عبدالرشيد البستوي*

مدرسة «نقيع الخضمات»:

كانت مدرسة نقيع الخضمات ثالثة المدارس بالمدينة المنورة على ميل منها في الشمال في دار أسعد بن زرارة ﵁، وكانت داره في حرة بني البياضة التي كانت أمام حي بني سلمة في حارة تعرف بـ «نقيع الخضمات». ومن المعلوم أن هذه الحارة كانت مخضرة للغاية، تكثر بها النباتات الخضراء منها نبات لطيف مُلوّن باسم «خضيمة»، وكانت السيول تدخل منها إلى واد العقيق. ولما استخلف عمر بن الخطاب ﵁ جعلها مرعىً لخيول الجهاد.

وكانت هذه المدرسة تختلف عن المدرستين السالف ذكرهما، وتمتاز عنهما في شمولها وإفادتها بالإضافة إلى مكانها المخضرّ.

لقد اعتنق الإسلام الأوس والخزرج: رؤساؤهما وبايعوا النبي ﷺ عندما حضروا مكة المكرمة في العقبة الأولى، وقالوا له: أن يبعث معهم إلى المدينة المنورة من يقرئ أهلها القرآن الكريم ويعلّمهم أمور دينهم. فأمر مصعب بن عمير ﵁ ليصحبهم إلى المدينة، وهناك رواية أخرجها ابن إسحاق تدل على أنه ﷺ إنما بعث مصعبًا ﵁ إلى المدينة مع رجال من الأنصار إثر بيعته العقبة الأولى.

فلما انصرف عنه القوم وبعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرأهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين؛ فكان يُسمَّى المقرئ بالمدينة مصعب، وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدس أبي أمامة[1].

وكان يشارك كل منهما الآخر في تعليم القرآن الكريم ونشر الإسلام، على

---

* أستاذ الحديث الشريف بجامعة الإمام أنور ديوبند والأمين العام لمنظمة علماء الهند.

[1] سيرة ابن هشام: ١/ ٤٣٤. وأسد الغابة: ٤/ ٣٦٩.

حين كان مصعب بن عمير ﷺ يؤم بالأوس والخزرج في الصلوات بجانب قيامه بتعليم القرآن. ولما قدم على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة بأهل المدينة بعد مضي سنة كان قد اشتهر فيما بينهم معلمًا ومقرئًا، وكان أسعد بن زرارة ﷺ اعتنى بصلاة الجمعة بالمدينة المنورة قبل أن تُفرض، وكان مصعب ﷺ يؤم بالناس فيها أيضًا، ولذا نرى هناك روايات شتى تنبئ عن أنه أول من جمّع الجمعة.

وكان ابن أم مكتوم ﷺ هو الآخر يقوم بخدمات التعليم بالمدينة المنورة علاوة على مصعب. وكان قد قدم المدينة معه، فيقول البراء بن عازب ﷺ: أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، وكانا يقرءان الناس[1]. وأخرج البخاري في صحيحه: فكانا يقرءان الناس القرآن[2].

وبما أن النبي ﷺ لم يبعث مصعبًا ﷺ إلا ليعلم الناس، وكان ابن أم مكتوم ﷺ يساعده في ذلك، فلا يعرف اسمه في خصوص النشاطات التعليمية بالمدينة المنورة، بالإضافة إلى أنه كان أعمى فلا يمكنه القيام بخدمات تعليمية إلا في نطاق محدود.

كان مصعب بن عمير ﷺ قد أسلم في أول الأمر، وكان قد ولد وترعرع في نعمة وعيشة راضية، ولما بلغ إسلامه أهل بيته صبوا عليه أنواعًا من الأذى، وأغلقوا عليه الباب، غير أنه تمكن من الخروج، وصحب الذين هاجروا إلى الحبشة. وبعد مدة رجع إلى مكة وهاجر إلى المدينة المنورة، ويقول البراء بن عازب ﷺ: إن أسعد بن زرارة ﷺ كان قد أسلم عام العقبة الأولى، وإنه كان نقيبًا لقومه، وأحدث النقباء سنًا، توفي في ١/ من الهجرة النبوية والمسجد النبوي كان يجري بناؤه، فطلب أهل قومه: النجار رسول الله ﷺ أن يعين لهم نقيبًا يرث أسعد بن زرارة فقال: إني نقيب لكم. وهناك من يقول: إن أسعد بن زرارة ﷺ ذهب إلى مكة وأسلم قبل العقبة، وإنه أول من أسلم من أهل المدينة المنورة.

كان ابن أم مكتوم ﷺ يسمى عمرو بن قيس أو عبد الله بن قيس، وكان ابن خال خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، وهو من المسلمين القدامى بمكة، وكان ﷺ يستخلفه أميرًا على المدينة المنورة في غزواته، فكان يؤم بالناس في الصلوات وكان قد

---

(١) صحيح البخاري، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وطبقات ابن سعد: ١/ ٢٢٤.

(٢) فتح الباري: ٧/ ٢٠٣. بولاق مصر، وطبقات ابن سعد: ٤/٢٠٦.

عمي بصره منذ صباه.

يقول البراء بن عازب ﷺ أحد طلاب مدرسة نقيع الخضمات: إني قد حفظت عدة سور من طوال المفصل قبل مقدم النبي ﷺ إلى المدينة، ويقول زيد بن ثابت ﷺ: إني قد قرأت سبع عشرة سورة قبل مقدمه إلى المدينة، ولما قرأتها عليه ﷺ فرح فرحًا جمًّا[1].

ولم تكن مدرسة نقيع الخضمات كتّابًا دينيًا فحسب، وإنما كانت مركزًا إسلاميًا بالمدينة المنورة قبل الهجرة، ومن المعلوم أن قبائل الأوس والخزرج كانت تتحارب فيما بينها منذ مدة مديدة، وآخر حرب جرت بينها حرب البعاث قبل الهجرة بخمسة أعوام. وكانت هذه الحروب الدامية قتلت رجالاً كثيرًا من القبيلتين بما فيهم وجوههما ورؤساؤهما، وكانتا على شفا جرف هار من الهلاك لأجل ويلات جرت عليهما الحروب. فجاء الإسلام رحمةً لهم كما تقول عائشة رضي الله عنها:

كان يوم بعاث يومًا قدمه الله لرسوله ﷺ فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤُهم وقُتِلت سرواتُهم وجُرحوا. قدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام[2].

وكان يوجد في أنفسهم – الأوس والخزرج – شيء من التباغض، ويخشى أن يجد أحد منهم على غيره إذا أم بهم رجل منهم فأجمعوا على إمامة مصعب بن عمير رضي الله عنهم وأرضاهم الذي كان من أهل مكة، فكان مصعب بن عمير ﷺ يؤمهم وذلك إن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض، فجمع بهم أول جمعة في الإسلام.

وهناك رواية تقول: إن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل المدينة أن يصلى بهم الجمعة مصعب، وذلك نظرًا إلى هذا الوضع. ولعل هذا هو السبب في إقامة الجمعة بالمدينة المنورة قبل فرضيتها. ولم يحضر في أول صلاة الجمعة إلا أربعون رجلا من المسلمين، ثم ازدادوا وبلغ عددهم أربع مأة. وذبحت شاة بمناسبة أول صلاة الجمعة أكل منها المصلون، الأمر الذي خلق في رجال القبيلتين مشاعر المودة والعطف.

وبذلك فقد أظهر المسلمون اجتماع شملهم، وأعربوا عن فرحهم قبل عيد اليهود في يوم السبت بيوم – يوم الجمعة – فقد كانوا يجتمعون يوم السبت ويأتون بطقوس دينية، وكان

---

[1] تذكرة الحفاظ: ١/ ٣٠.

[2] صحيح البخاري، باب القسامة في الجاهلية.

ذلك أول خطوة جريئة دينية واجتماعية في وجه اليهود، هذا وقد حط هذا المركز الإسلامي من مكانة بارزة كان يمتاز بها مركز اليهود العلمي والديني «بيت المدارس» بحي الفهر. حيث كانوا يجتمعون فيه يعلمون ويتعلمون، ويقومون بنشاطات دينية[1]. وبذلك فقد ارتبط الأوس والخزرج بمركزهم الديني والعلمي هذا استغناءً عن اليهود. ومن الجدير بالذكر أن الأوس والخزرج لم يكن لهم عهد بالقراءة والكتابة إلا قليلاً، وكانوا في ذلك عالة على اليهود، نعم كان هناك رجال يعدون على الأصابع يقرؤون ويكتبون، منهم: رافع بن مالك الزرقي، وزيد بن ثابت، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة، وأبي بن كعب رضي الله عنهم أجمعين[2]. وكانوا يتمتعون بالتعليم والتدريس قبل الهجرة، وكانت لهم علاقات وطيدة مع مدرسة نقيع الخضمات التي كان ينتسب إليها عدة قبائل من الأوس والخزرج.

ليعلم بالمناسبة أن المنهاج الدراسي آنذاك كان يقتصر على تعليم العقائد وأحكام الصلوات من العبادات، فإنه لم تكتب إلا الصلوات الخمس. ولذلك نجد أن النبي ﷺ كان قد بايع الأنصارَ في العقبة على ما كان يبايع النساء المهاجرات إلى المدينة: لا يشركون بالله شيئًا، ولا يسرقون ولا يزنون، ولا يقتلون أولادهم، ولا يأتون ببهتان، ولا يعصون رسول الله ﷺ في معروف.

وكانت المدارس الثلاث هذه تعتني بتربية من يتعلم فيها تربيةً صالحةً بجانب تعليم القرآن الكريم وأمور الدين. وكان النبي ﷺ أمر مصعبًا رضي الله عنه عند ما بعثه إلى المدينة معلمًا بثلاثة أشياء: أمره أن يُقرءهم، ويعلّمهم الإسلام، ويفقّههم في الدين؛ فكان يسمى بالمقرئ بالمدينة[3].

وتطبيقًا لأمره صلى الله عليه وسلم كان يجري في هذه المدارس والحلقات الدراسية تعليم القرآن الكريم وتعليم أمور الدين، كان الناس يحفظون الآيات والسور عن ظهر قلب. وكان التعليم يجري فيها ليل نهار وصباح مساء دونما تقيد بوقت دون وقت، فكان لكل رجل أن ينتفع بها عندما سنحت له الفرصة. (يتبع)

---

[1] الاشتقاق لابن دريد، ص:٢٦.

[2] فتوح البلدان للبلاذري، ص: ٤٥٩.

[3] سيرة ابن هشام: ١/ ٤٣٤.



مجلة عربية دينية
تصدر كل شهرين

الرئيس العام
فضيلة الشيخ
محمد سلمان الحسني

نائب الرئيس
فضيلة الأستاذ المقرئ
محمد رضوان نسيم

المشرف العام
فضيلة الشيخ السيد
محمد شاهد الحسني
الأمين العام بالجامعة

السنة الرابعة
العدد الأول
محرم - صفر ١٤٣٣هـ
يناير - فبراير ٢٠١٢م

مدير التحرير
شاكر فرخ الندوي

نائب التحرير
ظهير الهدى نور
الخليل آبادي

الاشتراكات
ثمن النسخة: ٢٠ روبية هندية
الاشتراك السنوي
داخل الهند: ١٠٠ روبية هندية خارج الهند: ٥٠ دولارا

المراسلات: مدير تحرير مجلة "المظاهر"
الجامعة الإسلامية مظاهر علوم سهارنفور (الهند)

MAZAHIR ULOOM SAHARANPUR, U.P. INDIA
الهاتف: ٢٦٥٥٥٤٢-٠١٣٢، الفاكس: ٢٦٥٩٩١٢-٠١٣٢
البريد الإلكتروني: Email:arabimajallah@gmail.com



مجلة عربية دينية

تصدر كل شهرين

السنة الرابعة
العدد الثاني
ربيع الأول - ربيع الثاني ١٤٣٣هـ
مارس — أبريل ٢٠١٢م

الاشتراكات
ثمن النسخة: ٢٠ روبية هندية
الاشتراك السنوي
داخل الهند ١٠٠ روبية هندية خارج الهند: ٥٠ دولارا

المراسلات: مدير تحرير مجلة "المظاهر"
الجامعة الإسلامية مظاهر علوم سهارنفور (يوفي)

MAZAHIR ULOOM SAHARANPUR, U.P. INDIA

الهاتف: ٢٦٥٥٥٤٢-١٣٢-٠، الفاكس: ٢٦٥٩٩١٢-١٣٢-٠

البريد الالكتروني: Email:arabimajallah@gmail.com